العلاقة بين مغول فارس ومغول القفاجق
بعد معركة عين جالوت
1260 - 1270 م
أ.د. محمود سعيد عمروان

مات الخان الأعظم للمغول مونكو Mongka في أغسطس عام 1259م، فأوقفت القوات المغولية عملياتها العسكرية في بلاد الشام. وكان للخان الأعظم ثلاثة أخوة كبير هم قوبلاءه Kubilai و هولاكو وهولونوك Arigboga المغولية في بلاد الشام، وأريق بوقا. كما كان له إخوة صغار أقل أهمية. وأشارت الدلايل إلى ترشيح قوبلاءه لنصب الخان الأعظم. وكان قوبلاء في تلك الأثناء يقود حملة عسكرية على حدود بلاد الصين، فسانته القوات المغولية المراقبة له في حملته ليكون خانًا أعظم، وبدأ يستعد للعودة إلى العاصمة المغولية حتى سيطر على الموقف داخل العاصمة(1).

وفي ظل هذه الأحداث اقتسمت الأسرة الحاكمة المغولية إلى قسمين: أحدهما يسانت قوبلاءه والآخر يسانت أريق بوقا. وانتهى الأمر باختيار قوبلاء خانًا أعظم للمغول (1260 - 1294م) وعندئذ انسحب هولاكو ومعه قواته إلى بلاد فارس لِنياب الأحداث في حين ترك قندهاره كتبغا مع باقي القوات المغولية في بلاد الشام، وصداف ذلك مولد دولة سلاطين المماليك في مصر والشام، فكان عليها أن تحمل رأية الجهاد إثبات وجودها وقوتها في المنطقة حتى تكون جديدة بالحكم بوصفها وراثة البيت الأيوبي في حكم مصر والشام.

وكانت بداية الاتصال بين المغول والمماليك عندما أرسل هولاكو سفارة إلى القاهرة في أوائل عام 1260م تطلب من سلطان قطرا (1259 - 1260).

(*) أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.
الإسلام والخضوع للسياحة المغولية. ولكن السلطان أمر بقتل الرسل، ومنع ذلك أن الحرب قائمة لا علاقة بين الطرفين. وعلى ذلك استدع قطر للقتال فحشد قواته، وانضم إليه ما تبقى من القوات الخوارزمية وعساكر المغول يرفعه عمر الأيوبي حاكم إمارة الكرك (1239-1261 م) حتى أصبحت القوات الإسلامية تفوق أعداد القوات المغولية التي قدرها البعض بحوالي عشرة آلاف مقاتل(2).

في نهاية يوليو 1260م اجتاز قطر وقواته الحدود المصرية، وتولى قيادة المقدمة القائد بيبرس الذي يحج في الانتصار على طالع القوات المغولية التي كانت بائدة بنا. وعند إثر هذه الهزيمة أرسل المماليك في مدينة بابل يخبره بالوقائع(3).

وكان أن نظم كتبغا قواته، وكان مع القوات المغولية قوات كرخية وأرمنية، وعناصر من مغول الفججاق(4)، كما كان يرافق كتبغا من البيت الأيوبي الملك السعيد صاحب الصبية، وللملك الأشرف موسى صاحب بخت(5).

وتم هذا كله فقد كانت القوات المغولية أقل عددًا من القوات الإسلامية. وحول أعداد القوات الأرمنية فقد ذكرت أحد المصادر الأرمنية أن عدد القوات التي أرسلها الملك الأرمني هيثم الأول (1261-1269 م) كانت حوالي خمسمئة(6).

أما عن قوات مغول الفججاق فقد ذكر ابن عبد الظاهر أن كشافة المماليك وجدوا جماعة كبيرة من التشتر مستأمنين رافعين إلى الباب الشريف لأنهم من أصحاب الملك بركة - خان مغول الفججاق - وكانوا وحدها عند هلاون أهيولاكو. فلما وقع بينهما، أهيا وقع الخلاف بين بركة وهولاكو، كتب الملك بركة إلينهم بالحضور إليه، وان لم يقدروا على ذلك يتحاوزون إلى عسكر الدبار المصرية، وذكروا أن العدو قد استحكمت بينهما - أى بين هولاكو وبركة - وكان عددهم فوق المائتين فارس، فكتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم، وحمل الخلع إلينهم وإلى نسائهم، وأحسن إلى مقدمهم الأربعة(7).
أما كتبغا فقد تقدم من بعلبك حتى وصل إلى مدينة الناصرة، ثم إلى عين جالوت التي وصلها يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام 1268 / الثاني من سبتمبر 1260م. وعند عين جالوت دارت المعركة الفاصلة بين المغول بقيادة كتبغا والمماليك بقيادة قطر، فانكسر المغول وسقطوا بين قتلى وأسرى، في حين نظر كتبغا بقاتل حتى هلك فرسه، فوقع في أمر المسلمين، وحمل مغيدا بالأغلال إلى السلطان قاصر بختله. كما وقع في الأسر الملك الصغير الأيوبي وقد أمر السلطان بقتله أيضًا. أما الملك الأشرف فقد فارق العسكر المغولي وطلب الأمان من السلطان فأمنه، وآثر على ما بيده وهي مدينة حمص ومضافاتها. وقدم قطر ودخل دمشق طفراً.

وكان جنجيز خان أربعة أولاد حسب كبر السن هم Jenghiz Khan (جوشى)، Vishnu Tului (جوشى)، Ogodai (جوشى)، وروكوبجي (جوشى). وفي أيام جنجيز خان كان مركز الحكومة في العاصمة قراقرم في إقليم منغوليا، أما بعد وفاته فقد تم نزع من التنسيق الإداري، فأصبح أوكتيني خانًا بالإضافة إلى إقليم منغوليا، أما جنجيًا فقد اختص بإقليم ما وراء النهر وتركستان الشرقية منذ عام 1257م، وفي سلالته التي استمرت حتى عام 1260م. فيما يخص بإقليم فارس فقد تولى حكمه هولاكو بعد موت والده طولو وذلك منذ عام 1256.

أما جوجي فقد حكم القبيلة الذهبية الذي كان لون خيامها ذهبيًا، فعرفت بهذا الاسم، وقد حكم بهدوس وقادر بين ولدانا هما باطو وعرفت سلالته باسم القبيلة الزرقاء، وحكمت جنوب روسيا وهجر بلاد القفقاس منذ الفتح حتى عام 1280م، وأنها هي أوردا Orda، وتعني في سيريا وشرق بلاد القفقاس.

ويعني في هذا البحث مغول مغول فارس ومغول القبائل الزرقاء الذين أطلق عليهم مغول القفقاس، ولاحظ أن كلمة القفقاس أطلق على البلاد التي تقع إلى شمال.
البحر الأسود والتي تعرف حاليًا باسم أوكرانيا، وكان يعيش فيها في تلك الحقبة Cumans وما قبلها عناصر البشنان ثم عناصر الكومان (12) وهي الأراضي التي وردت في المصادر العربية والفارسية باسم الفقهاء، وقد أخذ هؤلاء من مدينة سراي Sarai على نهر الفولغا عاصمة لهم (11).

أما مغول فارس فقد تولى هولاكو حكم بلاد فارس وأذربيجان وجزء من غربى بحر قزوين وأخذ من مدينة شيراز عاصمة له عام 1256 م وحتى عام 1265، وخلفه ابنه أباها أو أبيا 1265 - 1282 م، ثم تكواذار 1284 - 1284 م، وأرغون 1284 - 1291 م.

أما عن مغول الفقهاء فكانوا تحت حكم بركته ب جوجي منذ عام 1257 م أي قبل معركة عين جالوت وحتى عام 1267 م، ثم حكمها منكو تيمور 1267 - 1280 م، وتلاه ثودا منكو 1280 - 1278 م، وغنيت الدين 1290 - 1312 م.

وإذا كان البحث يركز على علاقة مغول فارس بمغول الفقهاء بعد معركة عين جالوت، فالتبانة عن العلاقة بين الحنان هولاكو والحان بركته. الواقع أن توسعات هولاكو عند حدود بلاد الفقهاء كانت السبب في العدوان بين الطوائف، فقد أورد العيني إن هولاكو طمع للظروف عائلية في التوسع في بلاد الفقهاء، لذلك تجهز جيشه وسار في عام 1256 م بعد جلوس بركته على سيرير الملك، وعندما علم بركة بذلك سار إليه بعسكره وهزمه، وكان بينهما نهر "ترك "، وقد جمع ماؤه لشدة البرد، فغير هولاكو وعسكره متخطياً إلى بلاد بركته، وانتهى الأمر بهزيمة هولاكو وعسكره "فولوا على أديابرهم ونكروتلا في النهر الجامد، فانفقالأجسام من تحتهم فغرق منهم جماعة كثيرة، وأفقت من بقاهم من المصفوف والغرق صبحه هولاكو راجعين إلى بلادهم، وصارت العدالة بين الطائفيين متميزة "، وقد لعب القائد المغولي نوغای Nogay
الذي أسماه العيني نَوَيَّة دورًا كبيرًا في هذه المعركة التي أدت إلى هزيمة هولاكو(12).

ويذكر أبو المحاسن أن الخان بركة كان يميل إلى المسلمين ميلاً زائدًا ويعظم أهل العلم ويقصد الصلحاء ويترك بهم. ووقع بينه وبين ابن عمه هولاكو، وقاتله بسبب قتله للمجحزة المستعصم بالله وغيره من المسلمين(13). وهكذا نشبت الحرب بين الطرفين منذ ذلك الحين، وصارت الصراعات بين الطرفين مرونة(14).

وإذا كان الصراع بين الطرفين قد ظهر قبل معركة عين جالوت بخمس سنوات فأنها لم تتفاقم إلا بعد موت الخان الأعظم مونكو وإنشاء الإمبراطورية المغولية إلى وحدات سياسية، وهذا لم يتضح إلا بعد معركة عين جالوت.

وكان الخان بركة يميل إلى الإسلام والمسلمين فاعتنق الإسلام في محلة لاحقة، وهي نقطة في غاية الأهمية في تاريخ العلاقات بين الخان بركة والخان هولاكو. ومسألة تحديد الزمن الذي اعتنق فيه الخان بركة الإسلام أمر يصعب تحديده بدقة، ولكن الباحث سحاول الوصول إلى تاريخ معقول وقبول، إذ يرى البعض أنه تحول للإسلام قبل اجتياز الفجر لصبيحة بغداد في عام 759، وأنه اعتنق على التخريب الوحشي الذي ألقاه المغول بالمدينة(15)، ثم تصاعد الخلاف بين الطرفين بعد معركة عين جالوت، وهو الأمر الذي دفع الخان بركة إلى سحب قواته التي كانت تحارب إلى جانب قوات هولاكو في بلاد الشام(16).

وحول الزمان الذي أسلم فيه الخان بركة فقد سبق أن ذكرنا أن جماعة كبيرة من النصارى مستأمنين وقادوا إلى الباب الشريف، أي سلطنة المماليك لأنهم من أصحاب الخان بركة، وكانوا بجده، فلم يوقع بهمما كتب إليهم بالحضر ويعبر طلب الخان بركة من عساكره الدخول إلى الديار المصرية أمرًا به دلائله. إذ لا يعقل أن يطلب الخان بركة من عساكره ذلك إلا إذا كانت العلاقات طيبة بين السلطان بيرس والخان بركة. وحول الإسلام الخان بركة ذكر العيني أنه أسلم على
بد أحد تلامذته الشيخ البازرجي الذي إتخذه من بخاري مقرًا له، وقد أورد ذلك في عام 252 هـ/1254 م، وقال أيضًا إنه عندما ملك الخان بركة البلاد "أسلماً وحسن إسلامه" (17).

ولعل في ذلك إشارات واضحة إلى إسلام الخان بركة، ولكن إعلام الظاهر بيزنطي بإسلام الخان بركة جاء بعد ذلك. فقد ذكر العيني أنه في عام 1261 هـ/2762 م وصلت رسالته إلى الخان خبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم أيضًا من بيوت التقارير (18). وعلى ذلك يمكن القول أن إسلام الخان بركة كان قبل عام 1262 م، وأن السلطان بيزنطي قد تلقاه بصورة رسمية في عام 1262 م.

وحول العلاقات بين مغول فارس ومغول القفقاس يهمنا في هذه الصفحات التعرض للطرق التي تربط بينه وبين التورطين. ومن المعروف أنه لا يوجد طريق بين الدولتين إلا طريق بحر قزوين، وليس لدى المغول قوة بحرية في تلك المرحلة. أما الطريق البري فهو من بلاد فارس إلى أرمينيا وبلاد الكرخ (جورجيا) وآسيا الصغرى حيث دولة سلاجقة الروم، وأخيرًا الإمبراطورية البيزنطية التي قامت في الملف وآخذت من مدينة ثقيلة عاصمتها حمص، والدولة اللاتينية التي أقامها الصليبيون في القسطنطينية على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية.

وفيما يتعلق بدولتي أرمينيا والكرخ فقد خضعت لها للخان هولاكو، واشتركت قوات الدولتين في معارك المغول ضد المسلمين، في معركة عين جالوت وغيرها من المعارك، خاصة التي دارت في أعقاب بحر بلاد الشام والفرات. كذلك كانت دولة سلاجقة الروم في طاعة هولاكو. وذكر ابن العبري أن هولاكو أرسل قبل معركة عين جالوت إلى طلب السلطان عز الدين وأعجب ركن الدين ليذهبا إلى خدمته فأطاعاه. وطلب من الأخوين بأن ينولي عز الدين من مدينة قيصرية في آسيا الصغرى إلى تجربة أرمينيا، وركن الدين من
مدينة أفسرا حتى ساحل البحر بحدود الإمبراطورية البيزنطية. وعاد الأخوان مسرورين وأتخذ ركن الدين مدينة سبسطية عاصمة له، وأقام عز الدين في قونية، ووضع هولاكو قوات مغولية لثبات في أراضي سلاجقة الروم.

وعلى هذه الصورة لم تبق في آسيا الصغرى خارج سلطان هولاكو سوا الإمبراطورية البيزنطية. وعلى الطرف الآخر القسطنطينية حيث كان اللاتين يحكمون بقية الأراضى البيزنطية بعد ما سقطت في أيديهم منذ عام 1261 م على أبدى قوات الحملة الصليبية الرابعة.

* * *

وقد استفاد الظاهر بيرس من الحلفاء من ذلك رفع بين مغول فارس ومغول الفتحجاق، حتى أنه يمكن القول بأن فكرة التقارب بين مغول الفتحجاق ودولة المماليك ظهرت في تلك المرحلة. ولكن مثل هذا التقارب لم يكن وضعًا على أرض الواقع بين الطرفين لأن الطريق البري بين بلاد الشام ومغول الفتحجاق يقطعه الدول المتحالفة مع مغول فارس. هذا إلى أن الطريق البحري عبر مجر مرسية كان يتحكم فيه اللاتين الذين يحكمون في القسطنطينية. ولكن الظروف التي خدمت هذه القضية، ففي عام 1261 م تيج الإمبراطور ميخائيل الثامن بالبروفيسور Michael VIII Palaiologos (1261 - 1282 م) في القضاء على الإمبراطورية اللاتين في القسطنطينية، بذلك أصبح الحاجز البحري الوحيد بين دولة الفتحجاق ودولة المماليك هو مجر مرسية الذي يقطع تحت سلطنة الإمبراطورية البيزنطية.

والمواطن ذات العلاقة بين الظاهر بيرس والإمبراطور ميخائيل أصبحت طيبة منذ عام 1260 م على الأقل، وهناك العديد من الأمثلة على حسن العلاقة بين الطرفين. ومن ذلك أنه في عام 1261 م وصلت كتب الإمبراطور ميخائيل "وهو يسمى أنه منى احتاجت سلطنة الملك الظاهر إلى مساعدة، ساعدت بكل ممكن تقدب سلطتي عليه". وقد رد السلطان عليه وأرسل إليه مهدي من تزارات وجماعية من أبنائه الأسابيع بخير لهم التزية وعدتهم "(20).
ويضح من النصوص أن هذه الأحداث وقعت قبل إنتقال الامبراطور من مدينة نيقية إلى القسطنطينية، فقد ذكرت المصادر أن الأمير فارس الدين أقوش المسعودي كان قد توجه رسلًا إلى الامبراطور ميخائيل الذي طلب من السلطان بيرس أن يرسل إليه بطرقة للنصارى الملوكين، فعين السلطان الرشيد الكحلاج لذلك، وأرسله في حربة الأمير فارس الدين 1260م. فأكرمه الامبراطور وآكرمه من في صحبته من الأساقفة. وتصادف وصول هذه الجماعة من قبل السلطان بيرس مع فتح الامبراطور للقسطنطينية، وأصبحت الامبراطور السفارة المصرية لمشاهدة المدينة، ثم عبروا على مكان به مسجد يبدو أنه مسجد أبو أيوب الأنصاري - فأنفاح الامبراطور عليه ليكون ثوابه للسلطان (21). وهكذا غدا الطريق مفتوح أمام حسن العلاقات بين دولة المالم بك ودولة مغول الخانقاه، مما جعل إقامة مفاوضة بين الدولتين أمرًا يسهل تحقيقه.

والفواق أن الرسل والمراسلات نشبت بين الطرفين. وهناك العديد من الأمثلة على ذلك (22). والذي يعني هنا في هذا البحث هو ما سجل عام 1261/1262م عن وصول رسل من الامبراطور البيزنطي، ورسول سلطان سلاحقة الروم، ورسول الخان بركة إلى أبواب سلطنة المالم بك. وهذا كلها يؤكده حسن علاقة الظاهر بيرس بهذه الدول وحكامها، وما تربط عليها من أثار في العلاقات بين مغول فارس ومغول الخانقاه.

وسوف نركز في هذه السطور على الكتب التي أرسلها الخان بركة إلى السلطان، وقد ورد بها "السلام والشكر وطلب الأفراح على هلاوين " هولاكو، والإعلام مما هو عليه من خلافة شنكرخان " جنكيز خان " وشريعة أهله، وأن كل ما فعله من اتفاق التفاوض بطرق العدوان منه، وأنتى قد قمة أنا وأخوتي الأربعة قرية من سائر الجهات لإقامة مدارنة الإسلام وإعادة مواطن الهند إلى ما كانت عليه من العمارة، وذكر الله وآياته وقراءة الصلاة وأخذ ثار الأمة والآية.

ثم التمس الخان بركة من السلطان بيرس " إنفاذ جماعة من العسكر إلى جهة السودان لإمكاك الطريق على هلاوين، ووصى على السلطان عن الدين [سلطان سلاحقة الروم] ويعتمد مساعدته "(23).
ويتضح مما سبق عدة أمور أهمها، أن الحرب كانت قائمة بين مغول فارس ومغول القفقاس، وأن هناك ترابط وتفاهم وتفاهم تام بين زعماء مغول القفقاس المسلمين في معركة هولاكو في جميع الجهات لرفع راية الإسلام. والأمر الثاني هو طلب الخان بركه إقامة تعاون عسكري بين الممالك في مصر والشام ومغول القفقاس في وجه الفرس، وهو الطريق الذي يتقدموه منه لمساعدة مغول القفقاس. والأمر الثالث هو قيام السلطان ببرس بتوسط بين الخان بركه وبين الذين يحكم بلاد سلاجقة الروم مع أخيه ركن الدين(24)، لأن دولة سلاجقة الروم كانت خاضعة للخان هولاكو، وبها حامية من مغول فارس(25)، وإذا ما أقضى سلاجقة الروم إلى جانب الخان بركه ضد هولاكو يكون ذلك في مصلحة دولة مغول القفقاس ودولة الممالك جميعاً.

وكان أن أكرم السلطان ببرس سفراء الخان بركه، وآعادهم ومعهم رسل من قبله مهتمين بالهدايا. يضاف إلى ذلك أن ببرس طلب أن يدعى للخان بركه بعد الدعاء له في مساجد مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والقدس الشريف، وأرسل السلطان عمراً إلى مكة نبأمة عن الخان بركه(26). وعلى أيّة حال، فالعداء بين ببرس وهولاكو قائم، والعداء بين الخان بركه وهولاكو قائم، كما أن الظهر ببرس يرجع أصله إلى بلاد القفقاس، وهي بلاد الخان بركه(27).

و لم يلبث الخلف الذي تم بين بركه والظهير ببرس، إن دخل حيز التنفيذ، ففي جمادى الأولى من عام 686 هـ/ مارس 1284 م، وصل إلى السلطان ببرس في مصر حامية من عربان خفاجة، وذكرنا أنهم يغورون على التضارب، وإن غاراتهم تصل إلى أبواب بغداد والبصرة، كما أخبروا السلطان بأخبار مدينة شيراز، وقد أكرمه السلطان وأغنم عليهم(28).
كذلك اهتم السلطان بيبيرس معاصر الفر 걱أت التي تؤدي إلى بلاد الشام، فطلب من نائب حلب أن يوجه إلى هذه المناطق حيث نهر الساحور، ويقيم على معه من عسك حلب ويخفف معايير الفر 걱أت لعل يعبرها أحد من التجار قاصدًا الشام.

وأستهدفت سياسة بيبيرس تدمير المناطق إلى بلجى إليها مغول فارس إذا ما قدموا إلى حلب سواء للإغارة أو لشق طريقهم إلى بلاد الفتح. من ذلك أنه كتب إلى الدواف بخطب بإحرق الأعشاب، كما سير جامعة إلى مدينة آمد ومواقع الأشعاب التي اعتمدتها قوات مغول فارس نزولها إذا ما وصلوا إلى حلب، وقد تم إحرق هذه الأشعاب لمسافة مسيرة عشرة أيام إلى أن صارت رمادًا، وت＃ ذلك أيضًا في أعشاب مدينة خلافة.

ومن ناحية أخرى فإن الحرب بين برك وهولاكو لم توقف كما تطالعنا النصوص، فقد ورد أن قوات برك امتصت على قوات هولاكو عدة مرات في البر والبحر. ولعل المقصود هنا بكلمة البحر نهر الفرات. وقد أدى ذلك إلى توقف التجارة في تلك المناطق وتعرض العديد من التجار للنهب والقتل. وكان في ذلك فرصة طيبة للدولة المماليك التي تسطر على مياه شرق البحر المتوسط. ويتبين من ذلك أن تحالف الخان بركه مع الظاهر بيبيرس ضد هولاكو قد نجح تمامًا، وأن الخان بركه كان بعيد النظر عندما تحالف مع الدولة الملكية، هذا التحالف الذي عاد على المماليك ومغول الفتح بفوائد كثيرة.

وفي تلك الأثناء، فضل السلطان الظاهر بيبيرس يراقب حركات مغول فارس "تحت رموز مكاتبهم، أخذًا بالحزن في أمورهم، وقصدها لا تقطع من بغداد وخلالات وغيرهما من بلاد الشرق..." وكان يبعث بالكشافة - أي الجواسيس - لاستطلاع أمورهم وأمسك من وسط التضارب ناسًا أخذ الأخبار منهم..."(21).
أما عن العلاقات بين الخان بركة والظاهر بيرس والإمبراطور ميخائيل فقد ظلت طيبة، ولكن صفو العلاقات بين الخان والإمبراطور تعاصر لبعض الوقت، وذلك بسبب اعتداء قوات مغول الفتحاق على الأرض البيزنطية. وقد أدى ذلك إلى منع الإمبراطور لرسول الظاهر بيرس من التوجه إلى بلاد الفتحاق مما أثار غضب الظاهر بيرس، وادعت أن الإمبراطور قد نكث بوعوده، "فخرج أمان الأشتر (الإمبراطور ميخائيل) وقال قد نكث بإمساك رسلي ومال إلى جهة هولاكو"، وأرسل بيرس إلى الإمبراطور يقول: "إن كان إمساك رسلي فساد حال مع الملك بركة، وكون عساكره أنسنت في بلادك، فأننا أصلح الحال بينك وبينه، كما كتب إلى خان بركة بذلك أيضًا" (32).

ويبقى أن السبب الرئيسي لتوتر العلاقات بين الخان والإمبراطور يرجع إلى التقارب الذي تم بين الإمبراطور وهولاكو، فقد رأى الأخير أن التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية في غاية الأهمية لضرب مغول الفتحاق وإيجاد نوع من التوافر السياسي والعسكري في آسيا الصغرى، لذلك أرسل هولاكو إلى الإمبراطور يطلب بزوجته له بعد موت زوجته النسطورية طفر خاتون (34). وقد وافق الإمبراطور على طلبه وشرع في إرسال إبنته غرينة شرعية له هي ماريا، قبل أن تصل ماريا إلى بلاط المغول في فارس مات هولاكو، فتوجه من إبنته أبغا (1280 - 1281م)، وعرفت في البلاط المغولي باسم دسبينا خاتون. وقد وجد المسيحيين فيها حامية جديدة للمسيحية بعد رحيل طفر خاتون، وأجبرها المسيحيون والمغول لما اشتهرت به من حب الخير والحكمة (35).

وفي تلك الأثناء وصل رسل الظاهر بيرس الذين أوفدهم للتوسط في الصلح بين الخان بركة والإمبراطور، إلى العاصمة البيزنطية، وعادوا ومعهم كتاب من الإمبراطور يتضمن رجوعه عن رأيه في معاودة مغول الفتحاق، وأنه
أقسم عليه ذلك. ويضيف الإمبراطور أن سبب تأخره في الرد على السلطان هو وفاة الخان بركه. كما طلب استمرار الصلح مع ظاهر بيبرس، وسأله أيضًا الدخول في الصلح مع أبغا بن هولاكو، بعد أن أقر الصلح مع بيت بركه. وقد رد الظاهر بيبرس على الإمبراطور بالموافقة على طلب الصلح، عدا الصلح مع أبغا.

وقال: "وأنا أبغا فماله إلا السيف، وهو مطلوب منا بقرار المسلمين"(23).

ويرى البعض أن من أسباب التوتور بين هولاكو والإمبراطور والخان بركه، ما حدث عام 1262م، فقد أواخر صيف هذا العام تأهب عز الدين سلطان قونه للقدوم خدمة هولاكو لأن السفراء كان يلحنون عليه في ذلك. و لما ضرب عز الدين خيامه خارج مدينة قونه واستعدًا للرحيل جاء من يخبره أن أخاه ركن الدين والقائد المغولي في تلك النواحي سوف يقدونه بالسلاسل ويدجدها به إلى ملك الملوك هولاكو. ولما سمع عز الدين خاف وترك خيامه وأخذ أهل بيته واتجه إلى الإمبراطور ميخائيل(24). ويضيف آخرن أن السبب الرئيسي يرجع إلى أن عز الدين سلطان قونه الذي أقامه هولاكو أرسل رسالة إلى الظاهر بيبرس يذكر فيها أنه تنزل له عن نصف بلاده. وقد وافق الظاهر بيبرس وشرع في تجهيز بحثة للسلطان عز الدين. ثم وصل كتاب آخر من عز الدين إلى الظاهر بيبرس يخبره فيه أن قوات هولاكو علمنى. ثم الاتفاق عليه بينه وبين سلطان مصر، فخاف ووبل هارباً(25).

وإذاء هذا التوتور الذي ساد آسيا الصغرى وأعمال الشام وبلاد القفقاس لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي وهو الدبلوماسي البراء إلا التصرف بسرعة للحفاظ على عرش الإمبراطورية الذي استعادته بقوة السلام وسط مزيج هائل من العداء شمل كل دول المنطقة التي متمت من بلاد فارس شرقًا حتى أوروبا غربًا. لذلك بدأ الإمبراطور في تغيير سياسته وعمل على مزيد من التقارب مع غول القفقاج، الوزير الأول في دولة غول القفقاج Nogai وعرض زواج إبنه من الأمير نوغاي(26) والقائد قواته(27).
وهم لا شك فيه أن هذا التصرف أغضب هولاكو علراة على غضبه من إيواء الإمبراطور للسلطان عز الدين، وينبغي أن الإمبراطور أراد إزاء الخان هولاكو فعرض عليه الزواج من إحدى بناته، فوافق هولاكو على ذلك، ومن الواضح أيضًا أن السلطان عز الدين خاف من غدر الإمبراطور به فأرسل إلى الخان بروحة يخيره سرا بذلك، فعرض الخان بروحة استضافته فسافر عز الدين متحفيا إلى (840)، وقد منحه حكم منطقة القروم.

والحقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية كانت في وضع حرج للغاية منذ استعادة الإمبراطور ميخائيل لعشرة الإمبراطورية، ذلك أنه نظر في غرب أوروبا حركة لاستعادة الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية، وسادت هذه الفكرة البابا أوربان الرابع (1261 - 1264 م) الذي وعد في عام 1263 م بتقديم عرش صقلية وجنوب إيطاليا إلى شارل أف أوغوست مؤسس ملك فرنسا (1266 - 1285 م) وأخ الملك لويس التاسع Charles of Anjou، وقد نصب شارل الإمبراطورية البيزنطية عداءًا إزاء البابوية التي أعدها تطالب الإمبراطور ميخائيل بتغذية وعده وتوحيد الكنيسة الشرقية والغربية.

وفي الوقت نفسه كان هولاكو يسعى للتحالف مع الغرب الأوروبي لضرب دولة المماليك واستعادة القدس، وفي هذا يعزز الظاهر بيرس، وكان يدير يعلم أن البيزنطيين ليس لديهم رغبة في إتمام مثل هذا التحالف الذي سيضرهم للخطر، كما أن الغرب الأوروبي نادى بحملة صليبية في عام 1263 - 1264 م ضد مغول القفقاز لقيامهم بغزو بولندا. وكان الأرمن والرسول الساسرة بروان أن المغول هم إرادة الله لتدمير القوى الإسلامية، وقد قام الساسرة الذين كننا في دولة مغول فارس بجهود جبارة من أجل إتمام هذا التحالف.

وفي حوالي عام 1263 م أرسل هولاكو أول سفارة إلى البابا، وكانت هذه السفارة بداية لسلسلة من الاتصالات الدبلوماسية المتبادلة بين خانات فارس
والغرب الأوروبي استمرت حوالي أربعين عامًا حتى دخل مغول فارس في الديانة الإسلامية(44).

وأما لا شك فيه أن أبناء تقارب الغرب الأوروبي مع هولاكو أزعج منطقة الشرق الأدنى الإسلامي، خاصة أن المغول اقترحوا هجومًا مغوليا على مصر، وأنهم سوف يقلمون القدس للصليبيين، هذا إلى أن تقدم المؤتمرات الصليبية كان فيه إزعاج كبير للإمبراطورية البيزنطية التي باتت تخشي على نفسها تكرار الحملة الصليبية الرابعة. ومع موت الخان هولاكو في عام 1265م، والخان بركه في العام التالي 1266م، ظهر شبه تحالف بين مغول القفجاح ودولة المماليك والإمبراطورية البيزنطية من جانب ضد خانات فارس والإمارات الصليبية والغرب الأوروبي من جانب الآخر، رغم التصافح الذي تم بين الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن وبين أبغا خان مغول فارس.

أما عن التحالف الثلاثي فقد استهدف شق صفوف الغرب الأوروبي بعامة وبين جنوة والبندقية خاصة، حتى لا يدخل التحالف بين أوروبا وبين مغول فارس خطي التهديد، لأن هذا التحالف سوف يدخل منطقة الشرق الأدنى في صراع يعود بالضرر على الأطراف كلها. وخطط ميخائيل الباليولوج لضرب الزوايا الأوروبي رغم أنه كان واهيًا، عن طريق بذل الشقاق بين جنوة والبندقية، في ضوء ما كان بينهما من صراع قديم ومتكرر، خاصة أن هذا الصراع قد تجدد في عام 1265م في مدينة عكا الصليبية، وهي الحرب المعروفة باسم حرب القديس سابا Saint Sabas. وقد استمرت هذه الحرب لأكثر من خمس سنوات هزم خلالها الجنونية في معركة بحرية عام 1258م، ولم يتم الصلح بينهما رغم توسط البابوية حتى عام 1261م (45).

وقد استغل الإمبراطور هذه الفرصة، ووجد أن البندقية تعتبر دعامة قوية للصليبيين، وأنها هي التي قادت الحملة الصليبية الرابعة وأسقطت الإمبراطورية الصليبية.
لذلك بدأ في التقرب إلى دولة جنوة المناقشة الأولي للدولة البندقية، وعقد معها معايدة في الثالث عشر من مارس 1261م عرفت باسم معايدة نيمفاليون Nymphaion. ووجب تحالف هذه المعاهدة تم التحالف بين جنوة وبيزنطة ضد البندقية، ووضعت جنوة سفينة تصرف الامبراطورية مقاومة سفن البندقية، كما منحت جنوة كل الامتيازات التجارية التي كانت ممنوحة للبندقية من قبل، وأصبح للتجار الجنوبيين حق التجارة العفرة من الضرائب في كل موانئ الامبراطورية وفي البحر الأسود أيضًا. وقد تعاونت جنوة بالذات في تجارة الرقيق والسلع الأخرى مع مصر ومغول الفتحاق (46).

ورغم النتائج اللاحقة لهذه الاتفاقية بين البندقية و الامبراطورية ميخائيل الذي أتهم البندقة بالشأم عليه مع ما نفرد Manfred ملك صقلية وجنوب إيطاليا 1268-1266م، فإن سفن الجنوبيين عززت وجودها في البحر الأسود. وصارت هذه السفن بصورة دائمة عبر مضيق البيرق والدردنيل لتصل إلى موانئ الشام ومصر. ومن خلال هذا الاتصال فإن ثروة مغول الفتحاق ازدهرت رغم عاصمة مغول فارس للطريق البري. ويتضح من ذلك أن هذا الاتصال التجاري لم يكن يتم طالما بقيت القسطنطينية في أيدي اللاتين (47).

و لم يسلم مغول فارس من تهديد أعدائهم المنافقين، فقد استمرت الحرب بين مغول فارس ومغول الفتحاق بعد موت هولاكو عام 1265م والخان بركه عام 1266م. ورغم أن مغول فارس موجوا في الحفاظ على أراضيهم إلا أنهم لم يتمكنوا من التوسع بعد ذلك في جهات الغرب بعامة، كما أنهم فشلوا تمامًا في السيطرة على بلاد الشام بخصوصها.

والواقع أن مغول فارس كانوا يحاربون على جبهتين، جبهة مغول الفتحاق وجهبة بلاد الشام. وكان عوائد مغول فارس يأملون في التحالف مع الغرب
الأوربي ولذا وأطلقوا العديد من السفارات إلى الباباوية وإلى حكام أوروبا من أجل إقامة هذا التحالف. ولكن أوروبا التي كانت ممثلة في إنجلترا وفرنسا بعد ضعف الإمبراطورية الرومانية للقديسة بوفاة الإمبراطور فريدريش الثاني عام 1250م كانت تهتم بمشاكلها الداخلية أكثر من الاهتمام أكثر بالقضية الصليبية والتحالف مع المغول. هذا إلى أن أوروبا لم تنس هجوم المغول الوحشي عليها وكانت تخفى من تقدم المغول مرة أخرى. يضاف إلى ذلك أن أوروبا سبق توالت أن مغول فارس سوف يتحولون إلى الديانة المسيحية ولكن هذا لم يحدث.

ومن جانب آخر تطعت شارل أف أبحث إلى قيادة حملة صليبية ضد القاهرة إسقاط الإمبراطورية البيزنطية مرة أخرى. لذلك لم يكن لدى شارل النية في الصراع مع الظاهر بيبرس أو مهاجمة أملاكه في مصر أو الشام. ويرى البعض أن شارل أقنع أخاه الملك لويس التاسع بأن يوجه يحملته الصليبية إلى تونس في عام 1270م، وليس إلى مصر كما حدث في عام 1260م.

وكان للإمبراطور ميخائيل بالبولوج أهمية عظمى في الصراع الذي دار بين مغول فارس ومغول الفتحاء، فقد كان كلما يعني هو استمراره على عرش الإمبراطورية، كما إن الإمبراطورية لم تنس ما فعله الغرب الأوروبي عندما أسقطوا الإمبراطورية عام 1204م، ولذا فإنه كان عدوًا لدودًا للغرب الأوروبي، وكان ذلك كانًا للظاهر بيبرس، كما أن تحالف الإمبراطور مع مغول الفتحاء كان سندًا قويًا له.

وحقيقة الأمر أن مغول فارس كان يسعهم الانتقام لزعمتهم في معركة عين جالوت والانصرار على دولة المماليك الناشئة في مصر، وذلك إذا كانت دولة المغول قد استمرت وحدة، وإذا كانت الحكومة اللاتينية قد استمرت مسيطرة على القسطنطينية. ولكن طرد الإمبراطور اللاتيني بلدوين الثاني عام Baldwin II.
1211م سهل كثيرًا من مهمة السلطان بيبيرس في الدفاع عن الشام ومصر ضد مغول فارس.

وفي ختام هذا البحث يود الباحث أن يؤكد حقيقة تاريخيَّة، وهي إن المعارك لا تقاس بوافقاتها وإنما تقاس بنتائجها. لقد كانت معركة عين جالوت صغيرة في أحداثها ولكنها كبيرة في تأثيرها على إمبراطورية المغول بعامة وحُجَرى مغول فارس ومغول القفقاز بخصوص، وعلى دولة الكنز وأرمينية وسلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية، ثم على الدولة المملوكية وعلى شما أفريقيا حيث قامت الدولة الخلفية في تونس. وطالعنا المصادر الأوروبية بأن السفارات تزدهرت بين مغول فارس والملك جيمس الثاني James II ملك أراغون (1213-1276 م)، وان أسطول أراغون نجح إلى الشرق في ما يشبه حمله صليبي للتحالف مع المغول، وعُتارية المسلمين (48).

وهكذا يبدو في ضوء النصوص أن معركة عين جالوت كانت لها تأثير على دول حوض البحر المتوسط بأكمله، بل أنها ربما تجاوزت ذلك إلى عمق أوروبا الشرقية والغربية.
الهواش

(1) الهمذاني، رشيد الدين: جامع التواريخ - دار الهفوف العربية - لبنان - 1983، ص 150 - 152.
(2) ابن العريء: تاريخ الزمان - دار المشرق - بيروت - 1986، ص 31 - 32.
(3) أبو الفندا: المختصر في تاريخ البشر - 4 أجزاء - بيروت (دار): ح - 3، ص 204 - 205.
(4) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 167.
(5) أبو الفندا: المصدر السابق - ج 3، ص 270.
(7) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق، ص 167.
(9) الهمذاني: المصدر السابق - ص 161، 160، 135، 96، 205.
(11) قسطنطين بروتوريكوس: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة عمود سعيد.
(13) أبو الفندا: المصدر السابق - ج 3، ص 168، العيني: عقد الجمان - دولة سلاطين
(15) أبو الفندا: المصدر السابق، ح 3، ص 192 - 193.
(16) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 137.

(17) العيني: المصدر السابق, ص 90 - 91.

(18) العيني: المصدر السابق, ص 36.

(19) ابن العري: المصدر السابق, ص 95 - 96.

(20) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 88.

(21) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 129.

(22) أبو المخاسن: المصدر السابق, ج 7, ص 22.

(23) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 170 - 171.

(24) أبو المخاسن: المصدر السابق, ج 7, ص 200 - 201.

(25) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 192.

(26) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 174.

(27) أبو المخاسن: المصدر السابق, ج 7, ص 94.

(28) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 194.

(29) أبو المخاسن: المصدر السابق, ص 194.

(30) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 136.

(31) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 149.

(32) Sanuders, Muslim and Mongols, Canterbury 1977, p.73.

(33) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 195 - 196.

(34) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 202 - 203.


(36) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 234 - 235.

(37) ابن العري: المصدر السابق, ص 234.

(38) ابن عبد الظاهر: المصدر السابق, ص 128 - 129.

(39) Saunders, op. cit., p.73.

(40) ابن العري: المصدر السابق, ص 224.
(41) الحمداني: المصدر السابق - ص ٢٠٠.


(43) محمود سعيد عمران: المرجع السابق - ص ٢٣٠ وما بعدها.

(44) محمود سعيد عمران: المرجع السابق - ص ٢٥٥ وما بعدها.

(45) Saunders, op. cit., p. 74.


(47) Saunders, op. cit., pp. 74 - 5.